١٢ ـ بين القاهرة وطوس

اصفهان الى سلطان آباد

للدكتور عبد الوهاب عزام

والباب العالى بناء ضخم قسمه الأمامى إيوان عال يمسك سقفه الرفيع ثمانية عشر عمودا ، مشرف على الميدان ، ووراء الايوان بناء ذو طبقات ست وسلاليم ضيقة ، وفى كل طبقة حجرات قليلة صغيرة ، وهذا البناء كله كان لجلوس السلاطين مشرفين على اللعب فى الميدان ، ولاستقبال الوفود أحيانا ، وكان بابه العظيم مفتوحا ليل نهار يأوى اليه أصحاب المظالم فترفع الى الشاه إظلاماتهم

مسجد الشاه بأصبهان

ومن الآثار التى رأيناها ، المسجد الجامع ، وهو من أكبر المساجد سعة رقعة وضخامة بناء ، وقد كمل بناؤه الحاضر فى عهود مختلفة ، وهو أقدم مساجد أصفهان . إيوان القبلة له قبة عالية ضخمة مبنية بالآجر ، والى الغرب إيوان صغير جميل أظنه من آثار الصفويين ، ووراءه مصلى كبير يؤخذ مما كتب على قبلته أنه بنى سنة عشر وسبعمائة ، ووراء هذا مصلى كبير لانوافذ له ، وفى سقفه كُوَى ينفذ ضوؤها من أحجار من المرمر شفافة

وفى المسجد إيوانات أخرى ومصلى له قبة صغيرة زعم بعض الأدلاء أنه كان بيت نار ، وأن القبة الكبرى كانت كذلك ؛ وذلك زعم لايصدقه التاريخ وفن البناء . وقصارى القول أن المسجد الجامع بأصفهان من عجائب الأبنية ، وأن فيه للتاريخ وفن العمارة درساً طويلاً . وفى الجمعية الجغرافية الآن عشرات الصور تبين عن أقسام هذا الجامع العظيم ودقائقه

وأكبر الظن أن هذا هو الجامع الذى وصفه مفضل بن سعد ابن الحسين المافروخى فى كتابه « محاسن أصفهان » حيث يقول : « والجامعان : الكبير العتيق البديع الأنيق . بنى أصله القديم عرب قرية طبران وهم التيم . . . ثم أعيد فى أيام المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين ، ثم زاد فيه أبو على بن رستم فى خلافة المقتدر ، فصار أربع أدور يحاس كل حد من جماعتها رواقا ، يلاصق كل رواق منه أسواقا . . . . وهو منذ اتخذ يطن بالتهليل والتحميد ، ويحن بالتسبيح والتمجيد . لا ينظم لأحدى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل . وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس أو رياضة نفس . ترين بمناظرة الفقهاء ، ومطارحة العلماء ، ومجادلة المتكلمين ومناصحة الواعظين ، ومحاورات المتصوفين ، وإشارات العارفين ، وملازمة المعتكفين . الى ما يتصل به من خانكاهات قوراء مرتفعة وخانات عامرة متسعة ، وقد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء . وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها الخ الخ

والباب العالى الذى ذكرته آنفاً كان يؤدى الى حدائق واسعة فيها قصور كبيرة رائعة ، رأينا منها قصر « چهل ستون » أى قصر الأربعين عموداً الذى بناه الشاه عباس واحترق فعمره الشاه

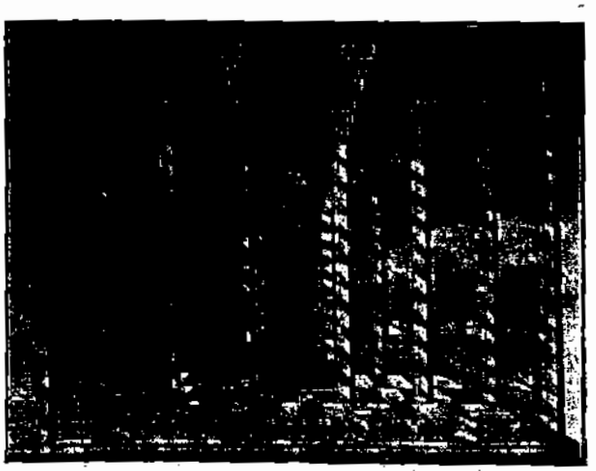

قصر چهل ستون للشاه عباس

سلطان حسين وهو كما رأيناه اليوم ، بناء وسط حديقة واسعة ،

ومقدم البناء رواق رفيع واسع يقوم بسقفه عشرون عموداً رفيعاً كل عمود قطعة واحدة من خشب الدلب ، وكان مكسواً بالمرمر تعلوه قطع المرايا على الأسلوب المألوف فى البلاد الفارسية ، وللبناء على الجانبين رواقان آخران صغيران ، ووراء الرواق الأكبر مدخل يفضى الى قاعة كبيرة ، ووراءها حجرات

وفى رواق الجانب الأيمن نقوش كثيرة ، بعضها يصور نفراً من الموسيقيين والمغنين ، وبعضها يمثل جماعة من سفراء دول أوربا الذين وفدوا على الملوك الصفويين ، وفى القاعة الكبرى صور زيتية كثيرة تمثل الملوك الصفويين مستقبلين ضيوفهم أو محاربين أعداءهم ، وهى صور تذكر بصور قصر فرسايل فى فرنسا

وأمام البناء كله حوض كبير على حافته نافورات ، ينعكس فيه مرأى الرواق الامامى . قال محدثنا : للرواق عشرون عموداً وهذه مثلها فى الماء ، فمن أجل هذا سمى قصر الأربعين عموداً

والحق أن آثار الصفويين فى أصبهان على ما نالها من عوادى الزمان تشهد بما كان لهم من الغنى والأبهة ، وبما كان فى الدولة من العمران والصناعات ، والنبوغ فى العمارة والنقش

ورأينا آثاراً أخر يضيق المقام بوصفها ، ثم أوينا الى الفندق وفى جيالنا جلال الماضى وجماله ، وأمام أعيننا ما كان من تبدل وتحول

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حال بعد حال

خرجنا العشية ، فجلنا فى أطراف المدينة ، ورأينا القناطر المشيدة على نهر زنده رود ، ورأينا مصنعاً كبيراً لآل اليزدى ينسج فيه الصوف ، ثم ذهبنا الى السوق ، وسوق أصفهان من أعظم الأسواق فى الشرق ، فرأينا بدائع صناعة اصفهان ، واشترينا منها ثم رجعنا إلى الفندق

ولما حان موعد العشاء خرجنا إلى دار الحكومة إجابة لدعوة الحاكم . فتممنا هناك زمناً بحديث السيد الهمام قاسم صور اسرافيل ورئيس البلدية ، والشاعر الانكليزى درنيكووتر والدكتور شميت الألمانى . ثم عدنا إلى الفندق نمشى فى القمراء وقد هوّد الليل ، فقلنا جيدا لو امتد بنا المقام

بكرنا إلى الرحيل ونحن نذكر قول أبى عبد الله الحسين النظرى :

خوت أصفهان خصالاً عجاباً بها كل ما تشتهيه استجاباً

هواء منيراً وماء نميراً وخيراً كثيراً ودوراً رحاباً

وتربا ذكياً ونبتاً رويا وروضاً رضياً يناغى السحابا

وفاكهة لا ترى مثلها نسيماً وطعماً ولوناً عجاباً

تفيد الأعلاّء براً كما يفيد الربيع الرياض الشبابا

وزاد محاسنها زندرود مياهاً كطعم الحياة عذاباً ألخ

فارقنا أصبهان والساعة ثمان وربع من صباح الاثنين ثالث عشر رجب (٢٢ أكتوبر) عائدين أدراجنا تلقاء قم — ومن أصفهان إلى كرمانشاهان طريق تسير شطر الغرب لا تمرّ بقم ، وهناك طريق أخرى إلى سلطان أباد فى العراق العجمى ، ولكن سائق سيارتنا ، وهو خبير بالطرق ، أبى إلا أن يسلك طريق قم إلى سلطان أباد فهمذان فكرمانشاهان لأنها طريق معبدة مطروقة معروفة ، ومررنا والساعة تسع ونصف بقرية صغيرة اسمها مورچه خورد (النملة أكلت) قال السائق هذه قرية دعا رسول الله صلوات الله عليه أهلها إلى إطعام بعض الفقراء فأخفوا ما عندهم من طعام فدعا الرسول عليهم فأكلت النملة ما ادخروه من قوت : ووردنا دليجان والساعة اثنتا عشرة فوقفنا موقفنا الأول على المطعم الذى وصفته آنفاً ، فجاء صاحبه وقال قد هيأت لكم الطعام ، قلنا أعددت دجاجة ؟ قال نعم وغيرها ، فصعدنا إلى الطبقة العليا فاسترحنا ثم جاءنا الطعام فأكلنا مسرورين فكهين

واستأنفنا المسير والساعة واحدة وأربعون دقيقة ، فلقينا على الطريق زميلنا فى المؤتمر الدكتور نظام الدين الهندى ، فوقفنا نجدد العهد به . ثم مررنا قليلاً فاذا ثلاثة من أعضاء المؤتمر : ألمانى وأمريكى وتركى مقيم فى أمريكا ، فتحدثنا قليلاً ثم افترقنا وكان هؤلاء يؤمون أصفهان فشيراز

بلغنا قم والساعة أربع فلم ندخلها ، بل ملنا عنها شطر الغرب نريد سلطان آباد . ونزلنا بعد نصف ساعة ببناء عند أشجار على مقربة من نهر قم . قلت للسائق أى موضع هذا ؟ قال تخت شير (تخت الأسد) شربنا الشاى ، وطلبنا شمامة (خربوزه) فجاء رجل بشمامة وبطيخة قلنا هذه البطيخة قدعة ، فما رأيك فى الشمامة ؟ قال حلوة جداً . قلنا شققها . فاذا شمامة غير ناضجة فقمنا نندب أملا ضاع بين قدم البطيخ وحداثة الشمام . ولم أنس من بعدُ تخت شير وشمامته . وكان مسيرنا فى أرض عامرة تبدو فيها